مجلة جامعة بابل / العلوم الإنسانية/ المجلد 12/ العدد 1: 2006

شعر الطفل
بين المبدع والمتلقي

سليمة سلطان نور
كلية التربية–جامعة بابل

بسم الله الرحمن الرحيم

تتبع أهمية شعر الطفل من أهمية المتلقي لهذا اللون من الأدب، والذين هم ليسو قراء المستقبل حسب بل الجيل الذي سيحمل على كاهله عبء بناء هذه الأمة، وتبرز أهميته من دوره الفاعل في توسيع نطاق معارف الطفل وبالتالي توجيهه الوجهة الملائمة لمصلحة المجتمع.

والواقع إن هذا اللون من الأدب لم يظهر إلا حديثا ؛ فلقد خلت الآداب العالمية والعربية منه قديما ولم يظهر فنا أدبيا يحمل الصفات المميزة له إلا في حدود القرنين أو الثلاثة الأخيرة، وبالتالي فإن الدراسات الأدبية والنقدية له قد ظهرت متأخرة وكانت هنالك محاولات جادة ومخلصة لتنظير هذا اللون من الفن لأهميته في حياة أي امة ومن هذا المنطلق كانت هذه الدراسة وغيرها محاولات على قدر أمكان أصحابها لتوضيح أساسيات عناصر هذا الإبداع الأدبي والمرتكز كغيره من الفنون على مبدع ومتلقي ورسالة واقصد بالرسالة القصيدة الموجهة للطفل والتي تمتاز عن غيرها بخصوصية اكبر للمبدع والمتلقي وهذا ما سنلاحظه في هذا البحث.

شعر الطفل

عرف الإنسان الشعر فنا أدبيا مرموقا منذ أقدم العصور، وتعددت أغراضه وأنواعه بتعدد وتنوع حاجات الإنسان وعواطفه، فكان لكل نوع من الأنواع الشعرية خصائص ومميزات خاصة بهِ.

اتفق الباحثون في مسألة تحديد النوع الأدبي على أن كل نوع أدبي يفتح " أفق انتظار" خاص به.. ويتسم بعناصر أساسية وعناصر ثانوية، فإذا لم يحترم النص العناصر الثانوية فأن انتماءه إلى النوع لا يتضرر، أما إذا لم يحترم النص العناصر الأساسية المسيطرة فأنه يخرج من دائرة ذلك النوع[1].وفي عصر التخصص والتنظير نتساءل ماذا نعني بشعر الطفل، وقبل الاسترسال في الحديث عن مميزاته وخصائصه لا بد من توضيح يسير وهو أن الشعر الذي يتحدث عن الطفل هو نوع شعري داخل في باب الشعر الموجه للكبار فالدافع الذي أدى بالشاعر إلى قول ذلك الشعر يكون خارجاً عن تقمص شخصية الطفل، قد يكون بدافع العطف أو الشفقة وفي الشعر العربي القديم والحديث الكثير منه[2].

ولو استعرضنا كتب الأدب العربي القديم لوجدنا إن ما قيل فيها من شعر يتعلق بالطفل لم يكن أدباً موجهاً لهم بالذات، إنما كانوا موضوعاً له[3]. والشواهد الشعرية كثيرة في هذا المجال. ومنه قول الشاعر (حطان بن المعلى)[4] وهو يتحدث فيها عن بناته ويبين مدى خوفهِ وإشفاقه عليهن:

أنزلني الدهر على حكمه ... من شامخ عالٍ إلى خفضِ
وغالني الدهر بوفر الغنى ... فليس لي مال سوى عرضي
لولا بنيات كزغب القطا ... رددن من بعض إلى بعض

لكـــان لـــي مضـــطرب واســـع في الأرض ذات الطول والعـــرض
وإنمـــــا أولادنـــــا بيننـــــا أكبادنـــا تمشـــي علـــى الأرض
لو هبت الـــريح علـــى بعضـــهم لامتنعت عينـــي عـــن الغمـــض[5].

وهناك نماذج كثيرة لا حصر لها في مدح الأبناء ورثائهم والحقيقة أن هذه النماذج ليست حصرا على الشـــعر القديم، فهناك الكثير من الشعراء المعاصرين ممن نظم عن أبنائه ومنهم من اتخذ الطفل رمزاً في شعره، كما فعل (نزار قباني) عندما يخاطب الأطفال في شعره قائلاً:

يا أيها الأطفال...
من المحيط للخليج، انتم سنابل الأمل
وأنتم الجيل الذي سيكسر الأغلال
ويقتل الأفيون في رؤوسنا...
ويقتل الخيال
يا أيها الأطفال انتم بعد طيبون
وطاهرون، كالندى كالثلج، طاهرون
لا تقرأوا عن جيلنا المهزوم ... يا أطفال
فنحن خائبون...
ونحن، مثل قشرة البطيخ، تافهون[6].

وكتب شعراء آخرون عن الأطفال خاصة بعد ظهور حركة الشعر الحر واتخـــذوا مـــنهم رمـــوزاً شعرية، ولعل (بـــدر شـــاكر الســـياب)[7] أكثر الشعراء الذين اتخذوا من الأطفال رمزاً فاعـــلاً في شـــعره مع أنه لم يوجه أي قصيدة للطفل[8]، ومـــن ذلك قوله في قصيدته (الأسلحة والأطفال).

عصافير ؟ أم صبية تمرحُ ؟
عليها سناً من غدٍ يلمحُ
وأقدامها العارية
محار يصلصل في ساقية
لأذيالهم زفة الشمأل
سرت عبر حقل من السنبل
وهسهسة الخبز في يوم عيد
وغمغمة الأم باسم الوليد
تناغيه في يومه الأول
كأني اسمع خفق القلوع
وتصخاب بحارة السندباد
رأى كنزه الضخم بين الضلوع
فما أختار ألاه كنزا... وعاد![9]

في مثل هذه النماذج نجد أن الشعراء اتخذوا من الأطفال رموزاً لقصائدهم ولكنها غير موجهة لهم فهي لا تحمل خصائص شعر الطفل الذي هو موضوع البحث.

ولعل من أبرز خصائصه هي نوعية المتلقي لهذا النوع الشعري، فهذا الشعر يكتب ليقرأه جمهورٌ خاص به وله مميزاته التي تفرض على الشاعر، التعبير عن تجربة شعورية تتقمص شخصية الطفل ... ويكون متسقاً مع إدراكهم ونصحهم ووعيهم وان يكون شعراً هادفاً إلى غاية تنفع الطفل[10].

ويكون أفق الانتظار الذي نتوقعه منه منسجماً مع روح المتلقي وأفكاره وتحقق هدف الشاعر المنشود في نيل إعجاب الطفل وفائدته.. ومن ذلك قصيدة (آه لو كان لي جناح) للشاعر(عبد الرزاق عبد الواحد)[11] الذي يقول فيها على لسان طفل.

آه لو كان لي جناح!
لتبعثرت في الرياح
لتسلقت في الظلامْ
غيمةً فوقها أنام!
تحت بوابة القمر!
لتعلقت بالشجر
تحت نافورة المطر!

أن الشاعر هنا يتقمص روح الطفل فيقول أشياء غير معقولة لا تصدق ولكن كلها ممكنة الحصول بالنسبة للمتلقي ويمكنه تصديقها فيتابع الشاعر قائلاً:

آه لو كان لي جناح
كنت أبحرت في الليالِ
راكباً زورق الهلال
سابحاً عبر الغيوم
كنت حملت زورقي
بسلال من النجوم

ثم يخاطب الطفل البلبل الصغير الذي يعد من أبرز رموز شعراء الأطفال فيقول:

أيها البلبل الصغير لك ريش وأجنحة
كيف تبقى هنا أسير

طر إلى كونك الكبير طر.. تمهل لأتبعك
إنما ليس لي جناح طر وخذ لهفتي معك [12]

أما في قصيدة (الشتاء)[13] للشاعر(فاروق سلوم)[14] فالشاعر هنا يتجه بخطابه إلى جمهور الأولاد والبنات ويقدم لهم نصيحة غير مباشرة قائلاً:

لوّح فوق الغيمة العابرة
قال أسمعي يا ريح يا ثائرة
طوفي بعيداً فوق كل البلاد
وخبري البنات والأولاد

قولي لهم هذا الشتاء عاد

ويصور الشاعر هنا المناخ في فصل الشتاء ليمهد لنصيحة فيقول على لسان الشتاء :

قولي لهم
ستسقط الأمطار
وتبرد المياه في الأنهار
وتسقط الثلوج
ويختفي المرح

وتأتي النصيحة ولكن على لسان من؟ وبأي صيغة ؟.

وسوف يبقى طائر الحناء
يدور طول الوقت في السماء
يبحث في سهولنا الهادئة
عن جدول مياهه دافئة
وكلما حط سمعناه... يقول حكمته

وفي حكمة طائر الحناء يظهر الهدف من القصيدة إذ يقول الشاعر:

عاد الشتاء، عاد
فانتبهوا للبرد يا أولاد

والواقع أن الأمر لا يتعلق بشعر الأطفال أو شعر البالغين بقدر تعلق الأمر بشعر يُقدَم بطريقة خاصة، فالمآثر والبطولات يطلع عليها الكبار ويتذاكروا ما فيها وكذلك الصغار ليتعرفوا على تاريخ أمتهم، ومثلها المعاني اللطيفة والدقيقة والفكر والوعي وتراث الأمة الغني والحكايات والأساطير والقصص، فشهريار "سجين ألف ليلة وليلة" موجود في كل منا صغاراً وكباراً ولكن الأسلوب والنمط هما اللذان يختلفان، فالأطفال بحاجة لأسلوب يتماشى مع مداركهم ومعارفهم بطريقة لطيفة وسهلة مع الحفاظ على أسلوب أدبي رفيع لينمي ذوقهم ولغتهم ولا يستعسر عليهم فهمه. أما الغرض من هذا الشعر فهو خلق استجابات ذهنية لديهم تجعلهم في موقع جديد، يشاركون فيه الشاعر حالاته الوجدانية يوم أبدع مقطوعته ويتذوقون مواقع الجمال عن طريق الصور الملهمة والأفكار الجميلة التي تدفع إلى التأمل والتفكير وتهيئ لهم فرص الاستمتاع[15].

المبدع

اتُفِق على إن صنع الإبداع الفني والخلق كلها أفعال تحتاج إلى صانع مبدع، وفي بحثنا هذا المبدع الصانع هو الشاعر فبدونه لا يكون إبداع أو شعر، ولقد عرف المجتمع دور الشاعر منذ وجوده الأول، حين كان جزءا من طقوس العبادة والحياة ولقد اسماه اليونان خالقا وأشركه العبريون مع النبي في هذا الوصف نفسه..أما العرب فقد أطلقوا عليه اسم شاعر من الشعور والإحساس. وفي الأرض العربية، فلقد كان مُشرعا في المجتمع وواضعا لقوانينه الأخلاقية والإنسانية وقد ذكر أبو تمام ذلك قائلا:

لولا خلال سنها الشعر ما درى بغاة الندى من أين تؤتى المكارم[16].

والواقع إن الشاعر رغم تغير الزمن وتعدد القنوات الثقافية ظل محافظا على موقعه الريادي، وكتبوا في جميع مجالات الحياة المعاصرة، فكان من الطبيعي أن يشارك في تربية الأجيال الجديدة فيوجه لهم شعرا يسهم في تعليمهم وتنشئتهم تنشئة صالحة، ولكن الكتابة للطفل ليست بالأمر الهين الذي يمكن تصوره وقد يظن بعض الموهوبين وأنصاف الموهوبين إن الكتابة للطفل أمر سهل المنال يسير وانه ما إن يبدأ به حتى يكون

النجاح حليفه بل ظن بعضهم أن الدخول إلى عالم الشعر للبالغين يتم عن طريق الكتابة للطفل كأن الشعر ينمو فيصبح شعرا للكبار بمرور الأيام وهذا خطأ فادح، فالمتلقي الطفل وهو قارئ الغد لن ينسى الشعر الرديء الذي قرأه للشاعر الرديء، ثم إن ثقافة الطفل لن تكون مختبرا لأقلام المبتدئين وإنصاف الموهوبين، بل حتى الموهوبين والعباقرة أنفسهم دون شرط أو قيد وهم ليسوا بقاصري الفهم وإنما" معلمون من الطراز الأول.... لان أخلاق الإنسانية مكتوبة في نفوسهم بالخط البارز الذي تقرأه لأول نظرة"[17] كما أكد عباس محمود العقاد؛ لذلك فإن الكتابة لهم ليست بالأمر الهين، فكما إن الكتابة للكبار تتطلب جهدا عاليا وحساسية ذهنية وعاطفية فائقة الحد وتصورا خلاقا كذلك الأمر في الكتابة للأطفال[18]؛ لذا توجب على الشاعر أن يتمثل دائما قول(مكسيم كوركي) " كتابة جيدة للكبار وكتابة للصغار أجود" [19] ؛ ذلك أن الشاعر يحتاج فوق الموهبة والمحبة والصدق مع المتلقي إلى دراسات متعمقة في اللغة ومن زوايا معينة تخص المتلقي هذا فضلا عن دراسات أخرى في أصول التربية ومراحل نمو الأطفال وخصائصها المتميزة ومعرفة بالقواعد السليمة للكتابة الأدبية والفنية... وإحساس تربوي مرهف بما يمكن أن تتركه الكتابة في نفوسهم من انطباعات دقيقة، رغم ما قد يبدو من ضآلتها ذات اثر باقٍ فعال في تكوين شخصياتهم والتأثير عليها [20]، على الشاعر آن يكون حذرا عند الكتابة للأطفال لأنه يتحمل مسئولية كبيرة وذا يعود إلى أنه " مهما كان الطفل موفور الحظ فقد يكون بحاجة لأن تساعده القراءة على تلبيتها.[21]

ولكن ماذا أصبح الشاعر بعد كل هذه الوصايا يجب أن يكون وان يكون و و و غيرها ؟!، سبق وان عرفنا أن من خصائص هذا الفن الرئيسة هو أن يكون المبدع متقمصا لشخصية الطفل في مرحلة وعي الأديب وان يستخدمها استخداما مختلفا عن استخدامها الواقعي،[22] ولنقف طويلا عند هذه الخصيصة بالذات ؛ وذلك لأنها ليست من خصائص الشعر فقط بل من خصائص الشاعر المبدع نفسه فالشاعر يحتاج فضلا عن كل ما سبق إلى الممارسة والاشتراك في كل شيء متصل بحياة الطفل حتى يعثر خياله على القوة التي تنمي عواطفهم وتثير انفعالاتهم، وتبعث فيه روح الطموح والعمل، فمن المسلم به أن الكاتب الخلاق لا يمكن أن يدخل عالم الطفولة الساحر والمختلف من خلال عقله وحده، وإنما الطريق الذي يقوده إلى هذا العالم بجانب العقل والمعرفة هو ذكريات الطفولة والخيال والحب والفهم والعاطفة، وقدر كبير من التميز الوجداني، وبعد كل ذلك نريد من الشاعر المبدع الذي يوجه شعر الطفل أن يكون فيه شيء من مرح الطفولة وبراءتها، وعليه معرفة جمهوره عن كثب وخبرة وأن يتمثل الصغار الذين يكتب لهم أمام عينيه وهو يكتب لهم لابد أن يقدم لهم عبارات تعطي الحركة والنشاط والصوت والشم والمذاق والنظر في أسلوب مباشر[23]، من كل ما سبق يمكن التوصل إلى أن الشاعر المبدع يتصف بصفات معينة غيرها عندما يكون مبدعا في مجال آخر فلهذا اللون من الأدب مبدع من نوع خاص ومتلق يتميز هو الآخر بخصوصية وبهذا نجد أنفسنا " سرعان ما نصل إلى نصح الشاعر بالحفاظ على نظارة الطفولة.. وسذاجتهم ومواقفهم الطفولية ونتمنى من الشاعر أن يكون شاعرا طفلا أي كائنا هامشيا وغير متورط في قضايا زمانه عرضيا إذا ما حلا له ذلك من النوع اللااجتماعي المعتدل "[24]، وان يتخلى عن نظامه الدقيق ويدخل عالم الطفولة بفوضاها وهذا ما أكده شعراء كتبوا للطفل ولعلنا نستشهد بشاعر مبدع ولامع في الكتابة للصغار والكبار على حد سواء وهو الشاعر (عبد الرزاق عبد الواحد) وتكفي رائعته (الحر الرياحي) لنعرف انه ليس هامشيا ولا عرضيا وفوق ذلك هو متورط بقضايا زمانه وربما ما بعده حد الجرم المشهود، ولكن ماذا يحدث عندما يفكر في الكتابة للطفل يقول الشاعر نفسه عن هذا الموضوع " الكتابة للأطفال هي مساحة التطهر في حياتي من كل تواطؤاتي على الشعر حينا وعلى نفسي حينا آخر في مجاميعي السبع والعشرين، كانت تمر بي حالات غريبة من الحاجة للبكاء يصاحبها

نهوض كل انساغ طفولتي في دمي، اذكر حتى محفوظاتي الصغيرة وأنا ابن خمس سنين أسماء أصدقائي ومعلميّ وألوان ملابسي حتى دفاتري اذكرها عندئذ اشعر إني مثقل بالأوحال تماما، فانقطع عن كل شيء لا أقرا جريدة ولا اسمع إذاعة ولا ارفع سماعة تلفون، أعيش في كهف نفسي لبضعة اشهر أحيانا، اخرج بعدها بمجموعة قصائد للأطفال هي أنا في أصفى لحظاتي إنسانا وفي أصفى لحظاتي مبدعا"[25] لنسأل الآن، ماذا يصبح شاعر العراق الكبير؟ ماذا يكون شاعر مسرحية (الحر الرياحي) عندما يكتب للطفل ؟!. حسنا يصبح هامشيا وعرضيا وطفلا غير متورط بقضايا زمانه فيكتب لنا قصيدة (الطائرة الورقية) التي لا يمكن أن تُكتب إلا من قبل مبدع له روح طفل فيقول على لسان طفل مبهور بطائرته الورقية :

ارتفعي ارتفعي
في موجة الهواء
ورفرفي واندفعي كالطير في الفضاء
ارتفعي ارتفعي
خيطك مازال معي وأنت تبعدين
علقته بإصبعي فأين تهربين
ارتفعي ارتفعي
إياك أن تميلي بذيلك الطويل
فيحدق الخطر
يعلق بالنخيل أو يعلق بالشجر
ارتفعي ارتفعي[26].

وبالرغم من كل هذا الشاعر بعد كل ما تقدم يظل هو وحده صاحب القرار الأول في التصرف بالنص وخصائصه الفنية ولكن ليتذكر أيضا هو وحده من يتحمل نتائج ذلك.

المتلقي

بدأ الاهتمام بالقارئ والقراءة قبل ظهور نظرية التلقي حين عُد القارئ عنصرا أساس في العملية الإبداعية، منذ القديم ونجد أصداءه في التداول الشعري القديم في الإنشاد، فالشاعر وهو ينشد قصيدته لمتلقٍ مفترض، وهو إما أن يكون هو الممدوح أو الناقد الذي يحضر عملية الإنشاد والإلقاء، وفي تلك الأفعال التي يبدأ بها العلماء والنقاد والفقهاء في كتاباتهم مثل "اعلم، فافهم". وفي مراحل نقدية مبكرة، غير أن هذا الاهتمام لم يسفر عن تصور منهاجي نسقي لهذه العملية، بحيث بقي في طور البدايات، إلى أن ظهرت نظرية التلقي والتي جعلت من المتلقي شريكا في عملية الإبداع الفني والأدب، ولقد اتفقت جميع المناهج النقدية على أهمية دور المتلقي البارز في العملية الإبداعية وأكدوا أن للمتلقي دورا فعالا في تحديد الفعل النهائي للإبداع وحدوده بدور يدعو إلى المشاركة في الخلق ، لأنه ليس مدعوا للاستجابة فقط بل مدعوا إلى الخلق وهذا يعني أن فاعليته لا تقل عن فاعلية الفنان، من حيث إعطاءه النص الشعري أبعاده النهائية، كما ينبغي أن فعل القراءة (التلقي) معادل للخلق الشعري[27]، إن التلقي ليس بالعملية اليسيرة التي يمكن تصورها بسهولة ؛ إذ إن أي فن إذا لم يجد المتلقي الملائم المتقبل والمتفهم وليس متلقيا عاديا بل القادر على كشف النص فانه سيكون فنا قاصر عن التعبير إن لم نقل الفائدة والمتعة وهي من أساسيات وجود الفن ،ذلك إن " مما لاشك فيه إن القارئ والمتلقي أو الجمهور لا يقل إبداعا عن الشاعر فإذا كان الشاعر خلاقا يكون المتلقي خلاقا إذا أحسن هذا الأخير – أي المتلقي– اكتشاف جوانب الإبداع في القصيدة "[28]ومن هذه الزاوية يمكننا القول إن

القصيدة ليس لها وجود حقيقي حتى تُقرأ ؛ إذ يمكن لقرائها وحدهم مناقشة معناها؛ فالعلاقة بين النص والقارئ هو ما يمنح النص خاصيته الفنية، مما يعني إن النص يكتسب قيمته من تفسيرات المتلقي وفهمه له، وهذا ما يجعل فعل القراءة (التلقي) معادل للوجود النص نفسه.[29]

وبالغ بعض النقاد في تقدير المتلقي فالناقد (ميخائيل ريفارتير) عد إداء القارئ عملية إبداعية مستقلة بحد ذاتها فدعا إلى وجود القارئ (القارئ الخارق)[30]. هذا القارئ واقعا نادر الوجود بين القراء المثقفين البالغين، لكن بالنسبة لجمهور الأطفال موضوع البحث فإنهم جمعا قراء خارقين بطريقة ما، ليس حسب وجهة نظر السياقيين أو النصيين، ولا بمعطياته التفسيرية أو من خلال فهم الدلالات والمعاني والإشارات، بل بطبيعته الخاصة وصفاته الإنسانية، فهو عندما يتعرض لوسائل الاتصال الجماهيرية لا يحس في العادة بأنه جزء من جمهور كبير بل يحس بصلته بالمصدر نفسه[31]، وهذا يفرض على الكاتب الذي يرغب بالنجاح مراعاة هذا القارئ الصغير لأنه قارئ خاص جدا فهو " إذ يتحكم غالبا بشروط الكتابة، فإنما يمارس من موقعه كقارئ دورا اكبر بكثير من ذلك الدور الذي يمارسه أي قارئ آخر، وهذا الموقف الذي يتخذه الطفل يشكل بحد ذاته قيمة نقدية كبرى للكاتب يستطيع من خلالها أن يتأكد من قيمته ككاتب "[32].

هذا المتلقي هو ما يميز شعر الطفل عن غيره فهو يمتاز بصفات خاصة ذلك انه قارئ مدلل ونزق أحيانا ويفرض على الشاعر أن يتلبس دور والده بعد التحسينات وشطب الأوامر والنواهي من قواميسه هذا فضلا عن أنه نادرا ما يحفظ اسم الشاعر وهو صعب المراس يعيد صياغة النص بطريقته الخاصة فهو كما يقول (أناتول فرانس) عنه " إنك تستطيع أن تقنع الكبير بفائدة الكتاب وتحمله عليه فيقرؤه ويمدحه، أما الصغير فليس لك به حيلة وهو حينئذ قد يحرق الكتاب أو يتخذ منه عروسا يلعب بها "[33]، وهذا ما يجعله (قارئ خارق) مخيف بالنسبة للشاعر.

هذا الخوف من المتلقي شعر به (أحمد شوقي) عندما كتب شعرا للأطفال ذاكرا ذلك في مقدمة (الشوقيات) التي صدرت عام (1898) ومصرحا به ضمنا حين قال " جربت خاطري في نظم حكايات على أسلوب لافونتين الشهيرة، وفي هذه المجموعة شيئا من ذلك، فكنت إذا فرغت من وضع أسطورتين أو ثلاث اجتمع بأحداث المصريين واقرأ عليهم شيئا منه يفهمونه لأول وهلة يأنسون أليه ويضحكون من أكثره وأنا استبشر لذلك"[34]. ولو عرفنا إن (أحمد شوقي) هو شاعر الأمراء وأمير الشعراء الذي لم يرتهب يوما بين يدي الخديوي حاكم مصر ولم ينتظر منه أن يستأنس بشعره ؛ فهو أمير الشعر والشعراء والواثق ثقة مطلقة بشاعريته بين يدي الخديوي أكثر بكثير مما يثق بها بين يدي هؤلاء الأطفال فهاهو يعرض شعره مباشرة على شريحة منهم ويترقب ردة فعلهم وهو أمر لم يحدث مع أي متلق آخر لشعره أيا كان هذا المتلقي ولو جمح بنا الخيال وتمكنا من سال المتنبي نفسه عن الكتابة للأطفال ماذا سيكون جوابه يا ترى ؟.

وقد يكون من الغريب أن يوصي باحث ما الشاعر بالخوف والحذر من المتلقي خصوصا بعد ما عرفنا مميزاته ؛ وهذا راجع إلى أن من السهل أن ينقل شاعر مبدع تجربته للكبار ويتحدث بأي أسلوب شاء فلابد أن يكون له جمهور الخاص والذي سيستقبل إبداعه، ولكن توصيل الفكر الراقي للصغار بطريقة سهلة يفهمونها هو أمر غاية في الصعوبة ؛ فأبسط الفنون الأدبية أصعبها على الكاتب الذي ينشد الإبداع لا إنتاج مباشر يخلو من التأثير في المتلقي ويقطع طريق التواصل مع المتلقي ويوقف ممارسة الاتصال الفعال بينهما، ولعل توفيق الحكيم يوجز لنا ذلك بقوله حين حاول كتابة بعض الحكايات للأطفال عام (1977) " إن البساطة أصعب من التعمق وانه من السهل أن اكتب وأتكلم كلاما عميقا ولكن من الصعب أن انتقي أو أتخير الأسلوب السهل الذي يشعر السامع بأنه جليس معه ولست معلما)[35]، ضع يدك هنا طويلا وأبدا بتحليل هذا النص

القصير وفكر في الجزء الأخير منه بالذات جليس ؟، وكيف يا ترى يجالس الأديب القارئ وتذكر ما قيل سابقا عن المبدع، وهاهو الجزء الأكثر صعوبة من تقمص روح الطفل فكل منا مهما كان مازال في داخله طفل صغير، ولكن الصعوبة تكمن في كيف تعلمه وترشده ولا تكون معلما وتذكر " لا كتابة مع التلويح بالسبابة، فلقد كان الشعر العظيم وسيظل غير تعليمي " [36] واذا كانت العلاقة بين الشاعر الذي يوجه شعره لجمهور البالغين هي الإبداع الفني والجمهور نفسه والذي يطالب المبدع صراحة أو ضمنا أن يكون الفن وهو (القارئ) رديفان متلازمان في العملية الإبداعية " فإذا كان شعراؤنا المعاصرون هم أول من يعنوننا لأننا نتوقع منهم أن ينطقوا بلسان واقعنا، ونحن لا نتفاعل معهم لذلك على مستوى الفن وحده، وإنما يعنينا دائما أن نبحث عن أنفسنا في أشعارهم فالفن ونحن عنصران أساسيان ومتلازمان في كل عمل شعري يحظى بتقديرنا "[37] هذا الأمر صحيح بالنسبة لنا نحن جمهور البالغين ولكن ماذا عن جمهور الأطفال .

الواقع إن الطفل غالبا لا يتفاعل مع النص على أساس الفن ونحن، بل على شرط نحن فقط فهو يريد أن يتحدث الشاعر عن أمور تعنيه هو كلعبته أو صديقه أو كتبه، يريدك أن تتحدث عن أمور تخصه هو أولا، وهذا (الدكتور إبراهيم ريكان) في كتابه (نقد الشعر في المنظور النفسي) يؤكد هذه الحقيقة فيذكر " إن الطفل يقبل على نوع من المضامين فهو يقبل على التغني بالقصيدة المكتوبة لأجله إذا صار محتواها شاملا:-

1- الحديث عن همومه المباشرة كعلاقته بأمه وأبيه وأخيه الصغير وصديقه وملابسه.

2 - الكشف عن علاقات الأشياء الأخرى بالطبيعة كالحديث عن الطير وعلاقته بالشجر والنهر وعلاقته بالتربة والكتاب وعلاقته بالتعلم والمعرفة.

3- الحديث عن مهمة القصيدة فالقصيدة الطفلية تعليمية المحتوى ولكنها تحمل مفهوما للحكمة من الفلسفات التي يمكن تبليغها للطفل ".[38]

ماذا أيها الشاعر هل مازلت مطمئنا للكتابة لهذا المتلقي، وضع أمام عينيك أنه عصي على الترويض والإيحاء، ولكي تنجح عليك فوق كل ما مر أن تحب المتلقي أن تشعر بالمسئولية اتجاهه، وتجعله يتأكد من إخلاصك وولائك، ولنتذكر دائما قول الكاتب الألماني المعاصر بروتولد بريخت " لو إن الأطفال ظلوا أطفالاً لكان باستطاعة المرء دائما أن يحكي لهم خرافات، ولكن الأطفال سيكبرون ويصبحون رجالاً "[39].اكتب لهم على إنهم صغار وتذكر أنهم سيكبرون فكيف ستحل هذه المعادلة ربما الموهبة وحدها غير كافية أضف إليها المحبة والصدق.

الإحالات

(1) ينظر الأدب والغرابة، عبد الفتاح كيليطو، دار الطليعة، بيروت، 1982، ص21.

(2) شعر الناشئة في الأدب العربي في العصر الحديث، داود سلمان القرة غولي، رسالة ماجستير على الآلة الطابعة 1986 ص11-12.

(3) ينظر سلمان العيسى شاعراً، عبد الرسول مزهر رسول، رسالة ماجستير، معهد الدراسات العربية، بغداد، على الآلة الطابعة، 1988، ص143.

(4) شاعر إسلامي لم يذكر تاريخ ولادته أو وفاته.

(5) شرح ديوان الحماسة أبي تمام، لأبي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي (ت. 421هـ) مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1951، ص289.

(6) المجموعة الكاملة لنزار قباني، جزاءان، منشورات نزار قباني/ 1979، ص512

(7) بدر شاكر السياب شاعر عراقي معاصر ولد1962–1964 في البصرة. معجم المؤلفين العراقيين، كوركيس عواد، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1969، 176/1.

(8) ويؤيد هذا القول الأستاذ الشاعر عبد الرزاق عبد الواحد معاصرو صديق السياب من مقابلة شخصية بتاريخ 8 /4/ 1999، أذن لي بنشرها.

(9) أنشودة المطر، بدر شاكر السياب، بيروت ط3/ 1963، ص221

(10) ينظر شعر الناشئة، داود سلمان، ص15–16.

(11)عبد الرزاق عبد الواحد، شاعر عراقي معاصر من مواليد 1930بغداد، مستل من كتاب (دليل كتاب ورسامي الأطفال في العراق، إعداد إنعام سعيد، الناشر دار ثقافة الأطفال، شركة المنصور للطباعة 1987، ص71.

(12) ديوان قصائد للأطفال، عبد الرزاق عبد الواحد، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1976، ص18–21.

(13) ديوان فصول، فاروق سلوم، الناشر دار ثقافة الأطفال، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1984، ص3.

(14) فاروق سلوم، شاعر عراقي معاصر مواليد 1948، تكريت، دليل كتاب ورسامي الأطفال في العراق، ص56.

(15) أدب الأطفال، فلسفته، فنونه، وسائطه، هادي نعمان الهيتي، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1978. ص213.

(16) ديوان أبو تمام شرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف المصرية،ط3، 1970، 3| 183.

(17) أنا، عباس محمود العقاد،تقديم،طاهر الطناحي،دار الهلال، بمصر، د.ت،ص133.

(18) ثقافة الأطفال دراسات وأفكار، كتاب 4 – 1992، بغداد، مقالة (الكتابة للطفل)، كاثلن بترتون، لم يُذكر اسم المترجم ، ص88.

(19) ثقافة الطفل دراسات وأفكار، كتاب 1– 1989، بغداد، مقالة (الكتابة للأطفال) فيرلندة مان، ترجمة عزي الوهاب، ص87.

(20) فن الكتابة للأطفال، احمد نجيب، دار المعارف بمصر، 1968، ص10.

(21) كيف تكتب للأطفال، جون أيكن، دار ثقافة الطفل، بغداد، 1987، ص43.

(22) مجلة الكتاب،ع6،1975، مقالة (أدب الطفل في سوريا) عادل أبو شنب،ص345.

(23) ينظر في أدب الأطفال، علي الحديدي، مكتبة الأنجلو المصرية،القاهرة، ط2،1976، ص74.

(24) ينظر أدب الأولاد والفتيان، مجموعة من المؤلفين، ترجمة نادر زكري، دار الحوار،دمشق،ص107.

(25) مجلة الموقف الثقافي،ع13، س3، 1998، حوار مع شاعر العراق الكبير عبد الرزاق عبد الواحد، ص106.

(26) جريدة الثورة العراقية، ع27،5399/ 2 / 198،ص6.

(27)ينظر جدلية الخفاء والتجلي، دراسات بنيوية في الشعر، كمال أبو ديب، دار العلم للملايين، بيروت، ط3،1984، ص43.

(28) ستقبل الشعر وقضايا نقدية أخرى، د. عناد غزوان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1994، ص43.

(29) ينظر الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية،عبد الله الغذامي، النادي الأدبي الثقافي،1985، ص57.

(30) ينظر مجلة الأقلام، ع1، 1999،س34، مقالة (البعد الأدبي لعلاقة القارئ بالنص)، ترجمة محمد درويش، ص46 للمزيد فيما يخص دور المتلقي فان " المحاولة الأكثر طموحا في اتجاه دور المتلقي في الأسلوبية، هي محاولة ريفارتير (1970) القائمة على مفهوم القارئ الجامع (أو المتوسط)،ينظر البلاغة والأسلوبية، هنريش بليث، ترجمة د.محمد العمري، الدار البيضاء، ط1، 1989، ،ص35 .

(31) ثقافة الطفل، د.هادي نعمان الهيتي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1988، ص60.

(32) العصفور(دورية)، ع5، أيار، 1986، مقالة (الكتابة للطفل ثنائية الحياة الثقافة)، لم يذكر اسم الكاتب، ص9.

(33) مجلة الفيصل، ع111، س10، حزيران 1986، مقالة (التفسير الإعلامي لأدب الطفل) بقلم عبد العزيز شرف، ص 25–26.

(34) الشوقيات الجزء الرابع، المقدمة، طبعة 1898، نقلا عن الطفولة في الشعر العربي،إبراهيم محمد صبيح، قطر، الدوحة، 1988، ص164.

(35) مجلة الفيصل، ع111، س10، حزيران 1986، مقالة (التفسير الإعلامي لأدب الطفل) بقلم عبد العزيز شرف، ص 25–26.

(36) كتابة ثقافة الطفل، 1–1989،مقالة (كتابة الشعر للأطفال)، ص 88.

(37) الشعر في إطار العصر الثوري، عز الدين إسماعيل، بيروت، 1972، ص23.

(38) نقد الشعر في المنظور النفسي، د.إبراهيم ريكان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1984، ص158

(39) مجلة الفيصل العدد 96، آذار، 1985، مقاله بعنوان ((فن الكتابة للأطفال)) بقلم محمد محمود قرانيا، ص88.

مراجع البحث

أدب الأطفال، فلسفته، فنونه، وسائطه، هادي نعمان الهيتي، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1978.

الأدب والغرابة، عبد الفتاح كيليطو، دار الطليعة، بيروت، 1982، ص 21.

أدب الأولاد والفتيان، مجموعة من المؤلفين، ترجمة نادر زكري، دار الحوار، دمشق .

أنا، عباس محمود العقاد،تقديم،طاهر الطناحي،دار الهلال، بمصر،د.ت

أنشودة المطر، بدر شاكر السياب، بيروت ط3/ 1963 .

البلاغة و الأسلوبية، هنريش بليث، ترجمة د.محمد العمري، الدار البيضاء، ط1، 1989.

ثقافة الطفل، د.هادي نعمان الهيتي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1988.

ثقافة الطفل، د.هادي نعمان الهيتي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1988.

جدلية الخفاء والتجلي، دراسات بنيوية في الشعر، كمال أبو ديب، دار العلم للملايين، بيروت، ط1984،3.

الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية،عبد الله الغذامي، النادي الأدبي الثقافي،1985، ص57.

(دليل كتاب ورسامي الأطفال في العراق، إعداد أنعام سعيد، الناشر دار ثقافة الأطفال، شركة المنصور للطباعة ، 1987.

ديوان أبو تمام شرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف المصرية،ط3، 1970 .

ديوان فصول، فاروق سلوم، الناشر دار ثقافة الأطفال، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1984.

ديوان قصائد للأطفال، عبد الرزاق عبد الواحد، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1976 .

سلمان العيسى شاعراً، عبد الرسول مزهر رسول، رسالة ماجستير، معهد الدراسات العربية، بغداد، على الآلة الطابعة، 1988 .

شرح ديوان الحماسة أبي تمام، لأبي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي (ت. 421هـ) مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1951 .

شعر الناشئة في الأدب العربي في العصر الحديث، داود سلمان القرة غولي، رسالة ماجستير على الآلة الطابعة، 1986.

الشعر في إطار العصر الثوري، عز الدين إسماعيل، بيروت، 1972.

الطفولة في الشعر العربي،إبراهيم محمد صبيح، قطر، الدوحة، 1988 .

فن الكتابة للأطفال، احمد نجيب، دار المعارف بمصر، 1968.

في أدب الأطفال، علي الحديدي، مكتبة الأنجلو المصرية،القاهرة، ط1976،2.

كيف تكتب للأطفال، جون أيكن، دار ثقافة الطفل، بغداد، 198 .

المجموعة الكاملة لنزار قباني، جزاءان، منشورات نزار قباني/ 1979 .

نقد الشعر في المنظور النفسي، د. إبراهيم ريكان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1984.

المقالات.

(أدب الطفل في سوريا) ، عادل أبو شنب ، مجلة الكتاب، ع1975،6.

(التفسير الإعلامي لأدب الطفل)، عبد العزيز شرف، مجلة الفيصل، ع111، س10، حزيران 1986.

حوار مع شاعر العراق الكبير عبد الرزاق عبد الواحد، مجلة الموقف الثقافي،ع13، س3، 1998.

(البعد الأدبي لعلاقة القارئ بالنص)، ترجمة محمد درويش، الأقلام، ع1، 1999، س34.

(الكتابة للأطفال) فيرلندة مان، ترجمة عزي الوهاب ثقافة الطفل دراسات وأفكار، كتاب 1- 1989، بغداد .

(الكتابة للطفل) كاثلن بترتون، لم يُذكر اسم المترجم ، ثقافة الأطفال دراسات وأفكار، كتاب 4 – 1992، بغداد.

(الكتابة للطفل ثنائية الحياة الثقافة)، لم يذكر اسم الكاتب، العصفور(دورية)، ع5، أيار، 1986، ص9.

الصحف

جريدة الثورة العراقية، ع27،5399/ 2 / 1998.